الله ينتظرك عند المريض

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

٥ «يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدْنى قال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْه. أما علمت أنك لو عُدتَه لوجدتنى عنده»(١).

إن الصحة هى من أثمن النعم، أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان، لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة، أما المرض فيحرمه هذه النعمة.

ولذلك فعندما يمرض الإنسان يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معية النعمة، يكون فى معية المنعم، وهو الله سبحانه.

فلو فقد المؤمن نعمة العافية فلا ييأس، فإن الله تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، لا مع النعمة التى فقدت منه.

والمرض ضر وشدة تنزل بالإنسان، ولكنه يجعله أحسن ما يكون ذكرًا لله وتسبيحًا له.

ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول: إنه يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة، بل عليه فقط ألا يضجر، وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه.

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك حينما قال: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب**

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبو هريرة -رضى الله عنه.

المستضعفين وأنت ربى.. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملَّكته أمرى.

إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزِل بي غضبك أو يحل علىَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

إن الإنسان عندما يمرض تسلب منه العافية فلا يستطيع أن يسير أو أن يتحرك، بل يرقد فى فراشه ليتألم.

ويوضح الحق سبحانه أنه إن سلب منه العافية، فهو سبحانه عنده، ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة ما دام المنعم معك ،والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معية الله ، فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجىء أبداً.

ومثال هذا ما كان من أمر رسول الله ﷺ وأبي بكر -رضى الله عنه- فى الغار، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر -رضى الله عنه- فقال: يا رسول الله لو نظرّ أحدهم تحت قدميه لرآنا.

هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله ﷺ وأبا بكر.

ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار، فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وما دام الله ثالثهما تكون المعية موجودة، وإذا كنت فى معية من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار؟

طبعًا لاتدركك أبصار الأعداء والخصوم.. اللهم اجعلنا فى معيتك دائمًا. وهناك فرق بين أن يكون الإنسان مع النعمة وأن يكون مع المنعم، الماديون يحبون النعمة.

أما غير الماديين فيحبون المنعم ويعيشون فى معيته.

ولذلك عندما خاطب الحق سبحانه المسلمين قال: ﴿**اذكروا الله**﴾ [البقرة: ٢٠٣].

بينما خطابه سبحانه لبنى إسرائيل: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٠]

والحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى:

«أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلهًا كان أهلاً أن أغفر له».

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة، ولو لم يخلق الجنة والنار، ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله، لماذا؟ لأن الابتلاء منه نعمة.

والله سبحانه يباهى بعباده ملائكته، ويقول إنهم يعبدوننى لذاتى، فتقول الملائكة: بل يعبدونك لنعمتك عليهم، فيقول سبحانه لهم: سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوننى.

ومن عبادى من أحب دعاءهم، فأنا أبتليهم حتى يقولوا يا رب. لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا ابتلى الله عبدًا فى صحته مثلاً، وسلب منه نعمة العافية، ترى الجاهل هو الذى ينظر إلى هذا نظرة عدم الرضا.

وأما المتعمق فلا ييأس، فإن الله تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، وأنه طوال فترة مرضه يكون فى معية الله.

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة وأنت فى معية الله دائمًا، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته فإنك تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت فى معية الله، وكل شىء فى الوجود خاضع لله، أيجرؤ شئ أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم، وأما من يعيش فى حضانة ربه فإنه لا يجرؤ عليه الشيطان، فهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة، وإنما يدخل مع خلق الله سبحانه الذين ينسون الله ويخرجون من معيته.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣]

وما دام الله سبحانه مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

يقول بعض الصالحين:

اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء، والعافية، حتى لا يكون ذلك زهدًا فى معيتى لك.

إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائمًا فى معية الله، فلا نيأس مهما لقينا فى حركة الحياة من مشقة.

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله؟ عندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معية الله لاستحى أن يقول: آه.

ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول: آه. ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول: «**ولكن عافيتك أوسع لى**».

ومعية الله سبحانه للمريض تقر فى نفسه أنه لا كاشف للضر إلا الله، فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله، والذى يشفى هو الله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ **وإذا مرضتُ فهو يشفين (٨٠)** ﴾. [الشعراء: ٨٠]

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء، وخلق الدواء، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء، ثم إلى الشفاء.

والله يوجد الأسباب ليُسرَّ ويُفْرح بها عباده، فيجعل المواهب كأسباب، وإلا فالأمر فى الحقيقة بيده سبحانه وتعالى.

قال رسول الله ﷺ: «**تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**» (١).

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائمًا أن الشفاء جاء معه، لا به، ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتى على ميعاد من علاجه.

إذن فالحق سبحانه هو كاشف الضر، وهو القدير على أن يمنحك ويمسَّك بالخير، وقدرته لا حدود له.

والحق سبحانه يقول:

﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)** ﴾. [الأنعام: ١٧]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٧٨) ، وأبو داود فى سننه (٣٨٥٥) ، والترمذى (٢٠٣٨) وابن ماجه (٣٤٣٦) من حديث أسامة بن شريك.

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله فينسب انكشاف الضر إلى مهارة الطبيب الذى لجأ إليه، ناسيًا أن مهارة الطبيب هى من نعم الله، أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال، ناسيًا أن الله هو واهب كل شيء، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكدِّه وعلمه ومهارته، ناسيًا أن الحق هو مسبب كل الأسباب ضرًا أو نفعًا، فسبحانه هو الذى يسبب الضر كما يسبب النفع.

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا، وإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر، لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله، ولا يرفع الحق قضاء فى الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله، والذى لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء.

فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له، لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء.

فإذا رأيت إنسانًا طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا.

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه، وهذا ارتقاء فى الابتلاء.

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذرًا ليهرب من ابتلاء الله له، ولم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحيًا، ولكنها حق.

وقد جاءه الأمر بأهون تكليف، وهو الرؤيا، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن، ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق.

ويلهمه الحق سبحانه أن يشرك ابنه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فلمَّا بَلَغَ معَهُ السَّعْيَ قالَ يَا بُنيَّ إنِّي أرَىٰ فِي الْمَنَامِ أنِّي أذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أبتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات: ١٠٢]

لقد بلغ إسماعيل عمر السَّعْى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله، ولم ينشغل بالحقد على أبيه، ولم يقاوم، ولم يدخل فى معركة، بل قال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾. [الصافات: ١٠٢]

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا؛ لذلك يقول الحق عنهما معًا:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾. [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧]

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله، وأسلم كل منهما للأمر، أسلم إبراهيم كفاعل، وأسلم إسماعيل كمنفعل، وعلم الله صدقهما فى استقبال أمر الله.

وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام: لقد استجبت أنت وإسماعيل للقضاء، وحسبكما هذا الامتثال، ولذلك يجىء إليك وإلى ابنك اللطف،

وذلك برفع البلاء، وجاء الفداء بذبح عظيم القدر؛ لأنه ذبح جاء بأمر الله.

ولم يكتف الحق سبحانه بذلك، ولكن بشَّر إبراهيم بميلاد ابن آخر:

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾. [الصافات: ١١٢]

لقد رفع الله عن إبراهيم القدر. وأعطاه الخير وهو ولد آخر، هو إسحاق، فالله زيادة على افتداء إسماعيل بذبح عظيم، يسوق المولى سبحانه البشرى بمزيد من العطاء.

وهو سبحانه لم يرزقه بولد ثان فقط، بل بولد يكون نبيًا وصالحًا.

وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾. [الأنبياء: ٧٢]

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضًا، وكل ذلك نافلة من الله، أى عطاء كريم زائد، وفضل كبير لأبى الأنبياء إبراهيم.

فالرضا بقضاء الله يجعل العبد فى معية الله وفى كنفه، ومن هذا القضاء المرض، أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى؟

لا، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض، ويجعله يشعر أن الأنْس بالله يخفف عنه الآلام، لكن للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه، فالعالم خُلق من أجل الإنسان، والإنسان خلق ليعبد الله.

ولكنك تجـده لا يلتـفت لما خُلق من أجله، بل يلتـفت للأشـيـاء التى خُلقت له، وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله.

فتـجد من يظن أن الطبيب هو الذى يشـفى، وينسى أن الله وحده هو الشافى، أمـا الطبيب فهـو معالج فـقط ولذلك تجد أننا قد نأخـذ إنساناً لطبيب فيموت بين يدى الطبيب.

فقد يعطى الطبـيب دواء للمريض، فيموت بسبـبه هذا المريض، وجاء سيدنا إبراهيم عليـه السلام بالقصر فى الشفـاء لله، حتى لا يظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه.

والصحة نعـمة من نعم الله يسبغهـا سبحانه على عبـاده، والنعمة حين يشاء الحق سبـحانه أن تصيب الإنسان، ثم تنزع منه، هـنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس.

واليـأس: هو قطع الأمل من حدوث شىء والمؤمن لا ييـأس أبدًا، ولا يقطع الأمل من رحمة الله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ . [يوسف: ٨٧]

اليأس ـ إذن ـ هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحقيقه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليـه؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد، فالمؤمن إن فقد شيئًا يقول: إن الله سيعوضنى خيرًا منه.

أما الذى لا إيمان له بإله فـهو يقول: إن هذه الصدفة قـد لا تتكرر مرة أخرى.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه مايريده فلا تجده يائسًا قانطًا.

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب، إن جاءت شكر لله عليها، وإن سُلبت منه فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة.

وهذا شأن المؤمن، وقد قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى.